الهيئة العامة
للتعليم التطبيقي والتدريب

معهد التربية للمعلمين

الموسم الثقافي لعام ٨٣/٨٢

الاسرة في الشعر العربي المعاصر
للدكتور / رجا سمرين

الكويت ١٩٨٤

الأسرة في الشعر العربي المعاصر

محاضرة للدكتور

رجا سمرين

ألقيت هذه المحاضرة في الساعة
العاشرة من صباح الإثنين
1983/2/14م

الأسرة هي الخلية الأولى التي يتكون منها المجتمع الإنساني، وهي اللبنة الأولى التي يتألف منها صرح الأمة الشامخ وبناؤها العظيم. وهي أضيق الدوائر الإنسانية التي تكتنف الإنسان الفرد، وتحوطه بالرعاية والحب، وتتعهده بالتربية والتعليم، وتأخذه بالتشذيب والتهذيب منذ أن يستهل صارخاً إلى أن يصبح إنساناً سوياً يشارك غيره من أبناء مجتمعه في البناء والتنظيم.

لهذا كان من الطبيعي أن ينتمي الإنسان الفرد إلى أسرته قبل أن ينتمي إلى عشيرته، وأن ينسب إلى عشيرته قبل أن ينتسب إلى قبيلته، وأن يرتبط بقبيلته قبل ارتباطه بشعبه وأن ينسب إلى شعبه قبل أن ينسب إلى المجتمع الإنساني الكبير.

ولقد كان من البدهي كذلك أن يفي الإنسان لهذه الأسرة قبل أن يفي لغيرها وما كان وفاؤه لها إلا صورة للوفاء الإنساني في أروع مظاهره وأجملها وأكثرها قرباً إلى الكمال. وما كان وفاؤه هذا ليتعارض يوماً مع وفائه لشعبه، كما أن وفاءه لشعبه لم يكن ليتعارض مع حبه للإنسانية جمعاء.

ولقد أثبت علم الاجتماع أن أولئك الذين يتصدون لقيادة الأمم، والأخذ بناصر الإنسانية لم يكونوا إلا من أولئك الذين أتاحت لهم الظروف أن ينشأوا نشأة أسرية سليمة شعروا في أثنائها بعطف الأب وحنان الأم وحب الاخوة ورعاية الأخوات، وحدب الجدود والجدات. كما أثبت علم الاجتماع كذلك أن معظك الخارجين على القانون إنما ينتمون إلى تلك الطائفة المنكودة الطالع من الناشئين الذين حرموا من العيش في ظلال الأسرة السليمة والعائلة القويمة، وحالت الظروف بينهم وبين أن ينعموا بعطف الأب، وحنان الأم وحب سائر أفراد الأسرة الآخرين.

وحب الإنسان لأفراد أسرته في رأينا هو الحب في أسمى أغراضه، وأشرف صوره وأروع مظاهرة وأنبل وجوهه، لأنه الحب المنزه من الأغراض المبرأ من الأهواء.

ولو رجعنا إلى الشعر العربي القديم لوجدنا أن القصائد التي صور فيها الشعراء والشاعرات عواطفهم تجاه آبائهم وأمهاتهم وأبنائهم وبناتهم وأخواتهم وإخوانهم قليلة نادرة إذ هي قيست بذلك الخضم المتلاطم من الشعر الذي وصلنا عن أولئك الشعراء.

وكان شعر الأسرة القديم يتخذ في بعض الأحيان قالب الوصية على نحو ما فعل يزيد بن الحكم الثقفي في قصيدته التي يعظ فيها ولده بدراً. وهذا النوع من القصائد لا تكاد تجد فيه ظلاً لعاطفة الأبوة أو صورة لشعور الحنان. فهي ليست أكثر من مجموعة من الحكم التي يودعها الشاعر خلاصة تجاربه، وعصارة خبراته في الحياة ليهتدي أبناؤه بنورها من بعده.

وقد نظمت جليلة بنت مرة قصيدة فريدة صورت فيها جناية أخيها جساس عليها وعلى قومها عندما قتل زوجها كليباً ابن عمه، وقد صورت في هذه القصيدة حيرتها بين ما يقتضيه الواجب منها لأنها زوج للقتيل، وبين ما تتطلبه منها التقاليد لكونها أختاً للقاتل:

تقول جليلة في ذلك موجهة حديثها إلى شقيقة كليب:

يـا ابنـة الأقـوام إن شـئت فـلا تعجلـي بـاللوم حتـى تسـألي
فـــإذا أنـــت تبينـــت الـــذي يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرىء ليمت على شـفق منهـا عليـه فـافعلي
جـل عنـدي فعـل جسـاس فيـا حسرتي عما انجلت أو تنجلي
فعـل جسـاس علـى وجـدي بـه قـاطع ظهـري ومـدن أجلـي
يـا قتـيلاً قـوض الـدهر بـه سـقف بيتـي جميعـاً مـن عـل
هـدم البيـت الـذي اسـتحدثته وانثنـى فـي هـدم بيتـي الأول
لـيس مـن يبكـي ليـومين كمـن إنمـا يبكـي ليـوم ينجلـي
إننـــي قاتلـــة مقتولـــة ولعـل الله أن يختـار لـي

وكان الشعر الأسري القديم يتخذ في بعض الأحيان قالب الشكوى من عقوق أحد الأبناء على نحو ما يبدو في قصيدة أمية بن أبي الصلت التي يصف فيها عقوق ولده ويذكره فيها بما كان يحوطه من رعاية وبر وعطف وحنان وهو صغير.. يقول أمية في ذلك:

غـذوتك مولـوداً وعلتـك يافعـا تعـل بمـا أدنـى إليـك وتنهـل
إذا ليلـة نابتـك بالشـكو لـم أبـت لشـكواك إلا سـاهراً أتململ
كـأني أنـا المطـروق دونـك بالـذي طرقت بـه دونـي، فعينـاي تهمل
تخـاف الـردى نفسـي عليـك وأنهـا لـتعلم أن المـوت حـتم مؤجـل
فلمـا بلغـت السـن والغايـة التـي إليهـا مـدى مـا كنـت فيـك أؤمـل
جعلت جزائي منك جبها وغلظة كأنـك أنـت المـنعم المتفضـل
فليتـك إذ لـم تـرع حـق أبـوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسـميتني باسـم المفنـد رأيـه وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل

وقد يكون وصفاً للبر الذي يلاقيه الوالد من أبنائه أو الأم من أولادها، ومن ذلك قول بعضهم يصف بر ابن له يدعى رباطاً:

رأيـت رباطـاً حـين تـم شـبابه وولـى شـبابي لـيس بـره عتـب
إذا كـان أولاد الرجـال حـزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنـا جانـب منـه دميـث وجانـب إذا رامـه الأعـداء ممتنـع صـعب

ولعل خير ما يبرز عاطفة الأبوة الحانية المشفقة في الشعر القديم ما يقوله حطان بن المعلى في بناته:

لــولا بنيــات كزغــب القطــا ... رددن مــن بعــض إلــى بعــض
لكــان لــي مضــطرب واســع ... فـي الأرض ذات الطـول والعـرض
وإنمـــا أولادنـــا بيننـــا ... أكبادنـــا تمشـــي علـــى الأرض
لــو هبــت الــريح علــى بعضــهم ... لامتنعــت عينــي عــن الغمــض

غير أن أغلب الشعراء القدماء ما كان ليذكر أحداً من أبناء أسرته في شعره إلا بعد أن يستوفي نصيبه من الحياة ويودعها إلى العالم الآخر عند ذلك تجري دموع الشاعر غزيرة مدرارة، فيلجأ إلى الشعر يبثه لوعته وحزنه على الراحل العزيز، وذلك كثير في الشعر القديم.

وفي النصف الأول من هذا القرن وصف النقاد الشعر العربي بأنه متخلف عن الشعر الأوروبي، وكانوا يعتبرون ندرة النماذج الشعرية التي يصورفيها الشعراء عواطفهم الأسرية مظهراً من مظاهر ذلك التخلف وقالوا بأن كثرة مثل هذه التجارب الشعرية في الشعر الأوروبي مظهر من مظاهر تقدمه وإنسانيته.

وقد حفزني ذلك على تتبع هذه المظاهر في دواوين الشعراء المعاصرين فخرجت من ذلك بنتيجة تتلخص في أن الشعر العربي المعاصر بريء من هذه الوصمة من وصمات التخلف التي تمس دائرة موضوعاته وإنسانيته.

فلقد أصبح شعر الأسرة من الكثرة بحيث أنه غدا صالحاً لأن يكون موضوعاً لعدد من الدراسات الأكاديمية والأبحاث العلمية التي ينوء بها عدد من الدارسين.

وما سأورده من نماذج في هذا الباب ما هو إلا قل من كثر وغرفة من بحر.

لقد أكثر الشعراء المعاصرون من وصف عواطفهم تجاه أبناء أسرهم وبناتها، وحظيت الأمهات بصورة خاصة بالنصيب الأوفى من اهتمام الشعراء وعنايتهم، وكيف لا والأم منبع الحنان الصافي والحب الخالص والشفقة الحانية والعطف الصادر والبر الصميم.

أما الآباء فقد لاحظت أن الشعراء قلما يذكرونهم في شعرهم وهم أحياء. وأكثر ما يكون ذلك عند الموت حيث يلجأ الشاعر لرثاء أبيه، وبدهي أن شعر الرثاء ليس مقصوداً بالحديث في هذه المحاضرة فهو خضم متلاطم خاض الشعراء عبابه في جميع العصور.

ولعل ندرة ذكر الآباء في الشعر الأسري المعاصر إنما يرجع إلى ما يتصفون به عادة من الجد والصرامة والتشدد في المعاملة، فهم أقدر من الأمهات على كبت عواطف الشفقة

والحنان تجاه الأبناء ولهذا قلما يلجأ الشعراء إلى التعبير عن عواطف الحب التي يكنونها لآبائهم.

وللشعراء المعاصرين قصائد كثيرة في أبنائهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم وأحفادهم وحفيداتهم أودعوها حبهم لهم وبرهم بهم وعطفهم عليهم وتعلقهم بأشخاصهم وحرصهم على مصالحهم واستياءهم مما يصيبهم من ضر وما يحيق بهم من أذى.

ووما هو جدير بالذكر أن الأسرة – وهي مملكة المرأة الخاصة – لم تستطع على ما في محيطها من عوالم وجدانية قوية الإيحاء، ووشائج إنسانية عميقة التأثير، أن تلهب قرائح الشاعرات المعاصرات بالقدر الذي يشبع النهم ويطفىء الأوام ويشفي الغليل بما يصور من علاقات إنسانية رقيقة تجلو لنا ما عرف من تعلق المرأة الشديد بأسرتها وحبها المفرط لها وإيثارها العظيم لأبنائها وتفان مخلص في سبيل خدمة أعضائها.

وشعراء المهجر يقفون في مقدمة الشعراء الذين أفاضوا في تصوير حبهم لأمهاتهم وشعر الأمهات عندهم تخالطه نغمة الحزن العميق والأسى الملتهب نتيجة حرمانهم من نعمة الأمومة بعد هجرتهم من أوطانهم حيث خلفوا وراءهم أولئك الأمهات اللواتي طالما أمضين الليل ساهرات من أجلهم يغذونهم بدفء العاطفة وحرارة الحب ورحيق الحنان.

ولعل خير ما يصور عاطفة الولد نحو أمه وعاطفة الام نحو ولدها تلك القصيدة التي صاغها أيليا أبو ماضي وعنوانها "هي" فقد حدثنا فيها عن سيد أقام حفلاً لجماعة من أصدقائه وقد طلب فيه من كل منهم أن يشرب نخب محبوبته بعد أن يسميها. وبدأ هو بنفسه فشرب نخب حبيبته لمياء ثم توجه بعد ذلك إلى أصدقائه قائلاً:

يا صحب من كانت به صبوة يعلنها الآن ويبديها
فنهضوا ثانية كلهم ورفعوا الكاسات تنويها
كلهم يشرب سر التي يهوي من الغيد ويطريها

وكان بين الشرب فتى شاركهم في شرب النخب الأول إكراماً لصاحب الحفل، ولكنه امتنع عن مجاراتهم في شرب سائر الأنخاب، فأقبلوا عليه يسألونه:

وأنت قال الصحب واستضحكوا هل لك من حسناء نحييها
قال أجل: أشرب سر التي بالروح تفديني وأفديها
صورتها في القلب مطبوعة لا شيء حتى الموت يمحوها
لا تترضاني رياء.... ولا تلثمني كذبا وتمويها

يضـيع مـالي ويـزول الصـبا وحبهـا بـاق وحبيبهـا
قـد وهبتنـي روحهـا كلهـا ولـم تخـف أنـي أضـحيها
سـر التـي لا غـادة بيـنكم مهمـا سـمت فـي الحـب تحكيهـا

وقد أحدث وصف هذا الفتى لحبيبته استياء في نفوس المحتفين صوره الشاعر في هذه الأبيات:

فـأجملوا منـه كمـن حيـه نهاشـة قـد عـز راقيهـا
وقالـت الغـادات أف لـه قـد شـوه المجلـس تشـويها
وقلقـل الفتيـان أسـيافهم فأوشـكت تبـدو حواشـيها
وقـال قـوم خبلتـه الطـلا وقـال قـوم صـار معتوهـا
فصـاح رب الـدار يـا سـيدي وصـفتها... لـم لا تسـميها
أتبخـل باسـم مـن تهـوى؟؟ أحسـناء بغيـر اسـم؟؟
فـأطرق غيـر مكتـرث وتمـتم خاشـعاً "أمـي"

ومن الشعراء الذي تغنوا بحب أمهاتهم الشاعر القروي والشاعر السعودي حسن عبدالله القرشي والشاعر الجزائري الربيع بوشامه ومن الشاعرات المرحومة روحية القليني وعاتكة الخزرجي وأسمى طوبى وثريا ملحس وعلياء دلاتي وجليلة رضا وغيرهن.

وقد قصت علينا الشاعرة الفلسطينية أسمى طوبى حكاية تتلخص في أن الخالق سبحانه قد أرسل ملاكاً ليحضر هدية للسماء من أجل ما تحويه الأرض، فهبط الملاك إلى الأرض وعاد منها إلى السماء وهو يحمل باقة من أبدع الورود، وبسمة طفل برىء يحلم وهو نائم، وحنان أم جاثية أما سرير طفلها تهدهده طوال الليل. وفي أثناء صعود الملاك إلى السماء ذبلت باقة الورد ، واستحالت بسمة الطفل دمعة جرت ملتهبة بعد أن استيقظ من نومه، ولم يبقى مع الملاك إلا حنان الأم الذي لم يغيره طول المسافة ولا عوادي الزمن، ولا أعاصير البوادي اللاهبة، ولم يكن من الملك إلا أن وضع هديته تلك مزهواً بها أمام بارئه.

تقول الشاعرة في قصيدتها:

حمـل المـلاك مـن الهـدايا باقـة الـورد النضـير
ومحبـة الأم العظيمـة بسـمة الطفـل الغريـر
ومضـى يحلـق فـي الفضـاء وتحـت شـمس الخـالق
فـإذا الأزهـار ذابـلات فرمـى بهـا مـن حـالق
والبسـمة العـذراء باتـت دمعـة حـرى أتهـدي دمعـة للخـالق؟؟
نظـر المـلاك إلـى حنـان الأم ظـل أم انتهـى
فيعـود دون هديـة يختـال مزهـواً بهـا

وإذا حنـــــان الأم يزخـــــر لـــــم تغيـــــره العـــــوادي
لا الشـــمس، لا طـــول المســـافة، لا أعاصـــير البـــوادي

وضع الملاك أمام باري الكون تحنان الأمومة:

قـــد جئـــت يـــا رب الســـما بهديـــة مُثلـــى عظيمـــة
بالخالـــد الســـامي الـــذي مـــا بدلتـــه يـــد الغيـــر
هـــذا حنـــان الأم يـــا ربـــا ه أطهـــر مـــا ظهـــر
هـــذا حنـــان الأم أســـمى مـــا حَـــوَت دنيـــا البشـــر

وبعد أن كان الشاعر القديم يأنف من زيارة قبر زوجته حتى لا يعير بذلك على نحو ما نفهم من قول جرير في رثاء زوجته:

لـــولا الحيـــاء لهـــاجني اســـتعبار ولـــزرت قبـــرك والحبيـــب يـــزار

أصبح الشاعر الحديث لا يتردد في الاعتراف بما لزوجته من فضل يضمن ذلك قصائد يصوها مصوراً عاطفته نحوها مشيداً بما تقوم به من رعاية له ولأبنائهما مصوراً عطفها وحدبها وإخلاصها وتفانيها. وممن فعل ذلك الشعراء محمود توفيق وكمال نشأت وشاكر السياب ومحمود سليم الحوت وجليلة رضا وغيرهم.

ومن ذلك قصيدة الدكتور كمال نشأت التي يصف فيها انتظار زوجته لأوبته من العمل وقلقها الشديد عليه بسبب تأخره في العودة ثم فرحتها باستقباله عندما يعود واهتمامها بما يقص عليها من أحداث يومه. يقول من قصيدته "العودة":

بيتـــي إذا عـــدت أرى بابـــه يهـــش بالإينـــاس والبهجـــة
أرى حيـــاتي فيـــه قـــد لونـــت أحلامهـــا مـــن قلـــب محبـــوبتي
فكفهـــا قـــد طـــرزت عيشـــتي بالحـــب والفرحـــة والنعمـــة
لا تطعـــم الراحـــة إن أخـــرت شـــواغلي العـــودة إلـــى "شـــقتي"
تجلـــس فـــي الردهـــة مشـــغولة لهيفـــة تنســـج بـــالإبرة
وعينهـــا فـــي ســـاعة علقـــت لتســـأل الســـاعة عـــن أوبتـــي
وســـمعها للبـــاب إن غـــردت أصـــابعي طـــارت إلـــى قبلتـــي
فتضـــحك الجـــدران حتـــى إذا أقفلـــت أبـــوابي علـــى جنتـــي
جلســـت أحكـــي كـــل مـــا ســـرني وســـاءني منـــتفض النشـــوة
وزوجتـــي تنصـــت فـــي غبطـــة قريـــرة هانئـــة النظـــرة

وقد بلغ من اهتمام بعض الشعراء المعاصرين بزوجاتهم أن أطلقوا أسمائهن على بعض دواوينهم كما فعل عبدالرحمن صدقي وبدر شاكر السياب صاحب ديوان "إقبال" وهو اسم زوجته. ومن القصائد التي تضمنها هذا الديوان قصيدة "إقبال والليل" التي صور فيها السياب لواعجه وآلامه بسبب مفارقته زوجته وأطفاله من أجل العلاج في لندن. يقول السياب من هذه القصيدة التي لم يؤرخ لها ويحتمل أن تكون آخر قصيدة عزفتها قيثارته الحزينة قبل أن تصمت صمتها الأبدي.

يـــــــا ليـــــــل أيـــــــن هـــــــو العـــــــراق؟؟
أيـــــن الأحبـــــة أيـــــن أطفـــــالي وزوجـــــي والرفـــــاق؟؟
يـــــا أم غـــــيلان الحبيبـــــة صـــــوبي فـــــي الليـــــل نظـــــرة
نحـــــو الخلـــــيج تصـــــوريني أقطـــــع الظلمـــــاء وحـــــدي
لـــــولاك مـــــا رمـــــت الحيـــــاة ولا حننـــــت إلـــــى الـــــديار
حببـــــت لـــــي ســـــدف الحيـــــاة، مســـــحتها بســـــنا النهـــــار

******

إقبـــــال مـــــدي لـــــي يـــــديك مـــــن الـــــدجى ومـــــن الفـــــلاه
جســـــــي جراحـــــــي وامســـــــحيها بالمحبـــــــة والحنـــــــان
بـــــك مـــــا أفكـــــر لا بنفســـــي...مات حبـــــك فـــــي ضـــــحاه
وطـــــوى الزمـــــان بســـــاط عرســـــك والصـــــبا فـــــي العنفـــــوان

ومن أجمل القصائد المستوحاة من محيط الأسرة قصيدة "ربّ الدار" للشاعرة المصرية جليلة رضا وقد صورت فيها الشاعرة خلافاً نشب بينها وبين زوجها وجعلها تفكر في الانطلاق إلى منزل أقربائها لتشكوه إليهم ولكنها لم تلبث بعد أن تصل إليهم أن تراجع نفسها وتعدل عن شكواها ليظل زوجها في نظرهم رمزاً للهيبة والوقار، ولعل سر جمال هذه التجربة الشعرية يكمن في واقعيتها التي جعلت منها صورة صادقة لما يمكن أن يحدث بين أي زوجين، ولما لم يكن أن يحدث من أي زوجة مخلصة يدفعها الالغضب إلى محاولة إفشاء سر ما ينشب بينها وبين شريكها في الحياة من خلاف ثم لا تلبث بعد مراجعتها نفسها أن تدرك سوء العاقبة الكامن فيما عزمت عليه فتعود إلى تلبية نداء التعقل والحكمة وتبقى على ما حدث بينها وبين زوجها سراً مقدساً عزيز المنال لا ينبغي إفشاؤه لأحد من الأهل أو الأصدقاء.

تقول جليلة وقد سكت عنها الغضب وثاب إليها التعقل بعد أن عزمت عن رفع شكواها إلى ذويها:

وتركت بعدك في الصباح ديـاري وأنـا علـى غـيظ وثـورة نـاري
وذهبـت أشـكو منـك عنـد أقـاربي وبحـــدة الإفضـــاء آخـــذ ثـــاري

وعلى الطريق تبخرت من خاطري ذكرى الإهانة والأسى والعار
حتى وصلت فلم أجد بمشاعري ما يستدل به على الإعصار
راوغتهم وجلست "أرغي" بينهم وأخوض بالضحكات كل حوار
ولمحت في قلق خيالك قائماً بيني وبين الأهل في إصرار
وخشيت أروي عنك أية هفوة لتظل في الأذهات رمز وقار
عارضت نفسي في الشكاية مثلما يتصرف الأزواج في استهتار
وذهلت كيف نويت أكشف سرنا زحياتنا قدسية الأسرار
وأجاب عقلي يا بنية أنه رغم الخلاف المر رب الدار

وعندما بشر أمير الشعراء أحمد شوقي بولادة ابنه الأول علي قال ساخراً:

صار شوقي أبا علي في الزمان "الترللي"
وجناها جناية ليس فيها بأول

ويقول معبراً عن إشفاقه من مجيء ولده في هذا الزمان الذي يعتبره آخر الأزمنة:

علي لو استشرت أباك قبلاً فإن الخير حظ المستشير
إذا لعلمت أنا في غناء وإن نك من لقائك في سرور
وما ضقنا بمقدمات المفدى ولكن جئت في الزمن الأخير

واستمعوا إلى هذه الأبيات الرائعة التي يجلو لنا فيها الشاعر الفلسطيني أبو سلمى عواطفه نحو ولده:

أنت الهوى يا ولدي يا نفحة الزهر الندي
يا حلم الماضي ويا عرس الأماني في غدي
نصبت في قلبي لك المهد الوثير فارقد
لا تخش من خفوقه هذا الغرام الأبدي
بني أنت من دمي وقطعة من كبدي
يا ليتني أدفن أولا آلا م الحياة بيدي
حتى تعيش لا ترى غير النعيم السرمدي

ولقد صاغ كثير من الشعراء المعاصرين قصائد في أولادهم ومن هؤلاء محمد مفيد الشوباشي وعيسى الناعوري وإيليا أبو ماضي وصلاح لبكي والشاعر الجزائري أحمد سحنون والشاعران المهجريان ندرة حداد وعقل البحر، ومن الشاعرات علية الجعار وشريفة فتحي وقد هدهدت شريفة فتحي طفلها بأنشودة دعت له فيها بالسعادة والأمن وصورت فيها

عواطفها نحوه وآمالها فيه وأودعتها بعض الوصايا النافعة، والقصيدة مفعمة بالمشاعر الإنسانية والصور الأنثوية التي لا يمكن أن تصدر إلا عن شاعرة أم:

نـم يـا حبيبـي فـي رضـا وأمـان ... سـهرت عليـك عنايـة الـرحمن
نـم فـي سـلام فالملائـك حولنـا ... تشـدو لأجلـك أعـذب الألحـان
تتبنـي البلابـل للصـغار مهودهـا ... بـالقش بـين سـواعد الأغصـان
وجعلت مهدك في حنايا أضلعي ... وفرشـته بمحبتـي وحنـاني
ويـرن صـوتك بالغنـاء منغمـا ... أبكـاء نـأى أم نشـيج كمـان؟
فإذا ابتسمت شدا وغرد خاطري ... وخلوت من همي ومن أشجاني
وعلـى خـدودك للربيـع ملامـح ... مـن ناضـر التفـاح والرمـان
واراك إلإذ تلهـو سـعيداً راضـياً ... كالطير يخطر في ربا البستان
فأروح أطوي في خيالي حاضري ... فـإذا السـنون تحولـت لثـواني
فـأرى بعين الغيب أنك في غد ... رجل عريض الجاه والسلطان
وإليـك نبراسـاً يقـودك للهـدى ... مـن نـور قلـب مخلـص متفـاني
سر يا بني على ضياء نصائحي ... تبلـغ مـن العليـاء كـل مكـان
كن فاضلاً دمث الطباع مسامحاً ... تكسب قلوب النـاس بالإحسـان
وصـن الكرامـة مـا حييـت فإنهـا ... كنـو الحيـاة وعـزة الإنسـان
واحـذر عـدوك إن بـدالك باسـماً ... فالسـم يمـلأ بسـمة الثعبـان
وانصر بلادك وافدها يوم الوغى ... فـالحر حـر الـنفس والأوطـان
واسـتقبل الـدنيا كأنـك خالـد ... واعمـل لآخـرة كأنـك فـان

ولم يكن حظ البنات بأقل من حظ البنين من عناية الشعر المعاصر ولعل في هذه الأبيات ما يشير إلى تطور النظرة التي أصبح المجتمع العربي ينظر بها إلى الإناث فبعد أن كان العربي في الجاهلية لا يتورع عن وأد ابنته ودسها حية في التراب خشية الإملاق أو العار جاء الإسلام الحنيف فرد إليها اعتبارها وإنسانيتها، وجاء عصر النهضة الحديثة فحطم ما قيدتها به عصور الظلام الوسيطة من أغلال، ولم يعد الرجل العربي المعاصر إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، بل أصبح يتقبل قدومها ببشاشة ويقول الشعر في تصوير حبه لها وعطفه عليها وكيف لا يفعل وقد سوى تكافؤ الفرص بينها وبين أخيها الفتى في جميع المجالات.

يقول أمير الشعراء في ابنته أمينة وقد أتمت عامها الأول:

أمينتـي فـي عامهـا الأول ... مثـل الملـك
كـم خفـق القلـب لهـا ... عنـد البكـا والضـحك
وكـم رعتهـا العـين فـي السـ ... ـكون والتحـرك

فـــإن مشـــت فخـــاطري يســـــــبقها كالممســـــــك
ألحظهـــــــا كأنهـــــــا.... مـــن بصـــري فـــي شـــرك

ومن الشعراء الذين صورا عواطفهم تجاه بناتهم عيسى الناعوري وسليمان العيسى وأحمد سحنون وجورج صيدح وغيرهم. ولم أجد بين شعراء العصر شاعراً كجورج صيدح هذا في التعبير عن حبه لابنته، وهو لا يكاد يترك مناسبة تعرض لها إلا ويقول فيها الشعر السائغ الذي يصور فيه عواطفه التي تثيرها تلك المناسبة.

فهي في عيد ميلادها زهرة لا تدانيها زهرة أخرى في العبق والجمال، وخلقها الله من ذوب السنا بينما خلق بنات الناس من ماء وطين:

نشـأت بـين صـفوف الياسـمين زهرة في الروض تسبي الناظرين
سـألوني مـا اسـمها قلـت اسـمعوا أطـرب الأنغـام عنـدي جـاكلين
كـل مـن أبصـرها قـال لهـا بـــارك الله بفـــن الوالـــدين
أتراهـــا خيـــرت فـــي خلقهـــا فأنـــت كاملـــة الحســـن المبـــين
أمْ براهـــا الله مـــن ذوب الســـنا وبنـــات النـــاس مـــن مـــاء وطـــين

وهو أسعد إنسان في الوجود عندما يراها تلعب لاهية مع كلبها:

ابنتـــــي مـــــع كلبهـــــا تلعـــــب فـــــي رحـــــب الحديقـــــة
أمهـــــا غابـــــت فمـــــن ذا يكـــــبح البنـــــت الطليقـــــة
ضـــــربت فـــــي العشـــــب، داســـــت أصـــــص الزهـــــر الأنيقـــــة
رب ورد هاجمتـــــــه وهـــــــي للـــــــورود شـــــــقيقة
وأنـــــا فـــــي مقعـــــدي أســـــعد حـــــي فـــــي الخليقـــــة
أتغاضـــــــى وعيـــــــوني لا تفارقهـــــــا دقيقـــــــة
أجتنـــــي فـــــي وجههـــــا وجهـــــي وعرقـــــي والســـــليقة
خلـــــف منظـــــاري تـــــوارت دمعـــــة الشـــــكر الرقيقـــــة
دمعـــــة تســـــتعطف الـــــدهر وتســـــتعطي رحيقـــــة
ليتـــــه يجمـــــع عمـــــري فـــــي ســـــويعات الحديقـــــة

ويطول بنا الوقت لو تتبعنا ما قاله هذا الشاعر في ابنته، فقد قال فيها الشعر عندما أجرى لها أحد الأطباء عملية جراحية، وعندما أصبحت حسناء مكتملة الأنوثة يضحك في وجهها ماء الشباب، وعندما تقدم الصحفي اللبناني حنا غصن لخطبتها منه، وعندما تزوجته وولدت لأبيها ثلاثة أحفاد. يقول الشاعر في حفيده الأول وقد أتم عامه الأول:

أدركـــــت عمـــــر الهـــــلال يـــا ســـبط ســـبط المعـــالي
عـــــام الصـــــرامة ولـــــى أبشـــــر بعـــــام الـــــدلال
حـــــــوم ودوم طليقـــــــاً يكفيـــــك عـــــام اعتقـــــال
كـــــان القمـــــاط ثقـــــيلاً علـــــى فـــــراج الغـــــزال
بنـــــيّ يـــــا روح روحـــــي ويـــــا خيـــــال خيـــــالي
يـــــا وصـــــلة بـــــين أمســـــي وحاضـــــــري ومـــــــآلي
أنـــــت الربيـــــع المرجـــــى لدوحـــــة فـــــي انحـــــلال

وعلى الرغم من أن الشاعرة لميعة عباس عمارة قد اختارت – كما ذكرت في مقدمتها لديوانها "الزاوية الخالية" أن تعيش حياتها بدلاً من أن تخلد بعد مماتها فإنها لم تبق زاوية الشعر الأسري خالية تماماً بل صاغت لنا وهي تعيش حياتها مع أسرتها أربع تجارب شعرية صورت لنا في ثلاث منها عواطفها نحو ابنها زيدون ورسمت لنا في رابعتها صوراً من حياتها مع أبنائها مجتمعين.

وقد تمنت لميعة على طفلها زيدون الذي دأب على إيقاظها ببكائه من غفوة الصبح – وهي من أحلى ساعات النوم عند الإنسان – أن يتركها تغفو في تلك الساعة من ساعات الليل لتشفي غليلها من الرقاد:

يـــا رفيـــف التـــويج فـــي الغصـــن نـــديان يمنـــي الفـــراش بالتقبيـــل
آه لـــو تركـــت لـــي غفـــوة الصـــبح لأشـــفي مـــن الرقـــاد غليلـــي

ومن الشاعرات اللواتي صورن عواطفهن تجاه أبنائهن وبناتهن نازك الملائكة وصبرية الحسو وفطينة النائب، وسلمى خضراء الجيوسي. ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ما قالته هؤلاء الشاعرات في أبنائهن وبناتهن.

وقد صورت لنا أسمى طوبى في قصيدتها الرائعة "طفولة" خلو بيتها من الأطفال بعد أن كبر صغارها وأصبحوا رجالاً وتفرقوا في أنحاء الأرض يحمل كل منهم في أهابه عزم الشباب تاركين لها ولأبيهم رسومهم التي ترنو إليهما بابتسام وصمت من فوق جدران المنزل المفعم بملل الكهولة وسأم الشيخوخة وترقب رسائل الأبناء التي يحملها إليهما ساعي البريد.

تقول أسمى من هذه القصيدة الفريدة:

ســـاد الســـكون المنـــزل الغـــافي علـــى الـــدرب العتيـــق
كبـــر الصـــغار فـــلا صـــراخ ولا شـــجار، ولا زعيـــق
كبـــروا فمـــا فـــي بيتنـــا فوضـــى ويضـــنينا التعـــب
لكنمـــا القنـــديل شـــح ضـــياؤه وخبـــا اللهـــب

الكرمـــــة الخضـــــراء تنقصـــــها عنـــــا قيـــــد العنـــــب
جفـــت ميـــاه الجـــدول الصـــافي فمـــا عـــادت تغنـــي
لـــم يبـــق بعـــد جفـــاف جـــدولنا ســـوى المجـــرى وحســـب.
حملـــــتهم أيـــــدي الزمـــــان لغيـــــر دنيانـــــا الرتيبـــــة
ومضـــوا خفافـــاً فـــي أهـــابهم مضـــى عـــزم الشـــبيبة
أبقـــــوا لنـــــا ملـــــل الكهولـــــة والســـــأم
ورســـــومهم ترنـــــو بصـــــمت وابتســـــام
وعيوننـــــا ترنـــــو إلـــــى بـــــاب الحديقـــــة
آذاننـــــا تصـــــغى لواقـــــع خطـــــاً عتيقـــــة
ســـــــــــــــــــــاعي البريـــــــــــــــــــــد
أتـــــراه يحمـــــل مـــــنهم خبـــــراً، رســـــالة
كـــــل الأمـــــاني بـــــين أســـــطرها الرقيقـــــة

وفي ختام القصيدة يبلغ شوق الشاعرة للأطفال حداً يجعلها تقول:

أتـــرى هنالـــك مـــن يعيـــد لنـــا مـــن الأحلـــم ظـــلا
أتـــرى هنالـــك مـــن يعيـــر المنـــزل المشـــتاق طفـــلاً

وقد زفت الشاعرة التونسية هدى صدام تهانيها إلى شقيقها في عيد ميلاده في قصيدة حلوة ضمنتها عواطف الأخوة الصادقة والود الصحيح:

رفـــت الآمـــال فـــي آفاقنـــا وعبيـــر الأنـــس بالبيـــت عبـــق
وتـــراءى فـــي عيـــوني فـــرح وعـــلا منـــي المحيـــا فـــانطلق
ريشـــة قـــد صـــورت فـــي مقلتـــي كـــل مـــا قلبـــي بـــه اليـــوم خفـــق
يـــا شـــقيق الـــروح يـــا كـــل المنـــى يـــا هـــلالا فـــي ســـمائي يـــأتلق
يمـــلأ القلـــب رجـــاء نـــوره ويزيـــل الهـــم إن جفنـــي أرق
يـــا شـــقيقي وحبيبـــي وأخـــي يـــا ضـــياء العـــين يـــا بـــدر الغســـق
عيـــدك اليـــوم كفجـــر باســـم عاد يحيي من سروري ما محق
هـــو فـــي القلـــب ابتهـــاج نـــاجم عـــن وداد خـــالص لا عـــن ملـــق
نحـــن فرعـــا دوحـــة أن حركـــت مـــادت الأغصـــان واهتـــز الـــورق
نحـــن جســـمان وقلـــب واحـــد مـــن وفـــاء صـــاغه رب القلـــق

وقد داعبت ملك عبدالعزيز أخاها بهذه الأبيات التي تحذره فيها من التمادي في عبث الشباب:

إلام تهـــيم بحـــب الحســـان وتقضـــي الليـــالي حليـــف الســـهر
أخـــاف عليـــك عبـــاب الغـــرام فمـــوج الغـــرام عنيـــف خطـــر

ويدهشـــني منـــك قلـــب عجيـــب كثيـــــر التقلـــــب لا يســـــتقر
أفـــي كـــل يـــوم تـــرى قطـــة فتأســـر منـــك الحجـــي والبصـــر

وأخيراً فإن الشاعرة الفلسطينية دعد الكيالي هي الشاعرة الوحيدة التي خصّت جدتها بقصيدة صورت فيها حنان الجدة وإخلاصها ووفاءها وعطفها على الأولاد والأحفاد.

جـدتي يـا حنـون يـا نـور عينـي أنـت فـيض مـن الوفـا الوضـاء
أنـت رمـز الإخـلاص فـي هـ ـذه الـدنيا مـلاك مجنح بالصـفاء
عنـدما تبسـمين يبسـم ثغـري وأرى فـي الحيـاة نـور العـزاء
وجهـك الحلـو فيـه معنـى نبيـل من سمات التقوى وصبر السماء
جـدتي يـا حنـون يـا نـور عينـي يـا عزائـي فـي عيشـي المنكـود
أنـت عطـر السـماء رف علينـا مشـرقاً عـاطراً بـنفح الـورود
أنـا قلبـي لـولاك فـرد يتـيم فـي وجـود مصـور مـن جحـود
أنـت كـالأم بـل أشـد حنانـا عطفـك الحلـو فـوق كـل قصـيد

وبعد، فلست أزعم أنني قد وفيت الاتجاه الأسري في الشعر العربي المعاصر حقه من البحث والدراسة، ولكني آمل أن أكون قد تمكنت من إلقاء بعض الضوء على بعض جوانب هذا الاتجاه الذي ما زال في انتظار همم وجهود مزيد من الدارسين. وأخيراً فإنني أشكر لحضراتكم حسن إصغائكم وصبركم وتجشمكم عناء الحضور، وسلام عليكم من الله ورحمة منه تعالى وبركاته.